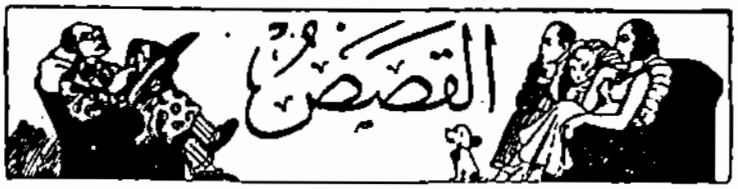

القلب المحطم

للكاتب الانجليزى واشنجطون ارفنج

اعتاد الذين تقدمت بهم السنون وتخطت بهم حدود الشباب فلم يعودوا يتأثرون بما يتأثر به الشبان من عواطف ، والذين درجوا على الخلاعة وشبوا فى جوها الزاهى حيث لا مقام لشعور أو قرار لعاطفة ، أن يهزأوا بأخبار الحب جملة ظانين أنها لا تعدو أن تكون صورا وأقاصيص من نسج خيال القصصيين والشعراء ، إلا أن خبرتى بدخيلة النفس الانسانية تحملنى على ألا أرى رأيهم ، فقد هدتنى التجارب إلى أن المرء قد يبدو فاترا باردا لشواغل الدنيا وهمومها ، وقد يطالع الناس هاشا باشا مراعاة لمراسم المجتمع وآدابه ، إلا أن وراء هذا الظاهر الهادئ نيراناً كامنة ترقد فى أعماق أبرد الصدور ، وهى نيران إذا أثارها مثير احتدمت احتداما لا يعرف مداه ، وقد تسوء عقباه . الحق أنى مؤمن قوى الإيمان بذلك السلطان الأعمى ، ذاهب مع تعاليمه إلى أقصى حدودها . إنى مؤمن بالقلوب المحطمة إيمانى بأن خيبة الحب فى رجائه قد تعجل بفنائه ، ولكنى لا أرى الحب مرضا كثير الفتك ببنى جنسى ، فى حين أنى أؤمن الإيمان كله بأنه المرض الذى يصيب كثيرا من النساء

لا يتطرق إليها الشك

فهل لك — يا سيدى القاضى — أن تنظر فى هذه القضية المرفوعة إليك ضد الأديب الكبير (الذى أظن أنك عرفته أوثق المعرفة) وإلى أن تحكم عليه الحكم العادل الذى يرده إلى ميدان الجهاد ولا يحوجنى إلى أن أستأنف القضية عند شيخ الأدباء « الزيات »

دمعق

محب الدين

اللطيفات فيزعجهن ويذهب بهن ومازلن فى مقتبل العمر وشرخ الشباب

إذ أن الرجل له مصالح وأطماع ، وطبيعته تدفعه إلى ولوج ميدان الحياة ، والكفاح فى معمعانها الصاخب ، والحب عنده ألمية فى مقتبل حياته ، أو أنشودة ينشدها فى أوقات فراغه ، وذلك لأنه فى شغل عنه بما يطمح إليه من شهرة ، وما يسعى وراءه من ثروة ، وما يروم تحقيقه من فكرة ، فهو لا يفتأ مشوقا إلى بلوغ ما يصبو إليه من سؤدد بين أنداده من الرجال ؛ أما المرأة فكل حياتها نهب للعواطف ، وما سيرتها إلا تاريخ لنوازع القلب ؛ فالقلب دنياها التى تطمح فيها إلى فرض سلطانها وإقرار مكانها ، وفيه تنقب عما تتمناه من مخبوء الكنوز فتطلق كل جارحة فيها للمغامرة ، وتنطلق بكل روحها مع سفين العواطف ، فإن غرقت سفينتها فقد خاب الرجاء فيها ؛ إذ معنى ذلك إفلاس قلبها ودوال دولتها

قد تسبب خيبة الحب للرجل آلاما ممضة ، وقد تجرح بعض مارق من أوتار قلبه ، وتعصف ببعض معالم هناءته ، إلا أنه مخلوق عامل يستطيع أن يبدد أفكاره ويصرفها بالاندماج فى دائرة الأعمال المتنوعة ، كما أن فى وسعه أن ينغمس فى الملاهى والمسرات ، أو يبدل مقر سكناه إذا رأى أن المسرح الذى مثلت عليه فصول مأساته محاط بملابسات لا قبل له بتحمل ما تسببه له من غصص وآلام ، فيرحل إلى حيث يشاء متخذا أجنحة الصباح طائرا إلى أقاصى البلاد حيث يخلد إلى الراحة والسكينة

أما حياة المرأة فهى بالنسبة إلى حياة الرجل حياة استقرار وعزلة وتأمل ، وهى أكثر اصطحابا لأفكارها وعواطفها ؛ فإذا ما استحالت هذه إلى رسل ودواع للألم والحزن فإلى أين النجاء ، وأين تلقى العزاء ؟ إن حظها من الحياة أن تحب وأن تنال ، فإذا ما ساء حظها وخاب فألها فى حبها فثل قلبها فى ذلك مثل القلعة تقع فى أيدى الأعداء فتنهب وتسلب وتترك خواء

كم من عين متألقة خبا ضياؤها ! كم من خد أسيل غدا شاحبا ! كم من وجه جميل ذوى وطواه الردى دون أن يدرى امرؤ السبب الذى أودى بتلك النضارة ! فمن طبيعة المرأة أن تخفى عن العالم آلام عواطفها المجروحة كما تضم الحمامة جناحيها إلى

جانبيها تخفق بهما السهم الذى يوغل فى مقاتلها . وحب المرأة الحساسة هادئ خجول ؛ ومهما أصابت فى حبها من توفيق فقلما تهمس به لذات نفسها ؛ أما إذا خاب رجاؤها فى الحب أودعته طيات صدرها وتركته هناك فى هم واصب بين طاول أمسها الذاهب ، فقد أخفقت آمال قلبها ، وانتهت بهجة الحياة الكبرى عندها ، فهى عندئذ تعاف الألعاب البهجة التى تنعش الفؤاد وتسرع النبضات وتدفع تيارات الحياة والصحة فى العروق ، وهى فى حالها تلك تقلقها الأحلام السود وتفزعها فى نومها ، ويمتص الأسى دماءها حتى ليمسى جسمها من الوهن والهزال ينقض ويتهدم تحت أضعف مؤثر خارجى . فإذا ما سألت عنها بعد قليل وجدت الأصدقاء يبكون على قبرها وقد عاجلتها المنية فى وفرة صباها ، فتعجب ما شاء لك العجب كيف هبطت إلى عالم الظلام والديدان تلك التى كانت تشع منها إلى عهد قريب ضياء الصحة والجمال ! فيقال لك أصابها برد أو مرض شائع فتوفاها ، وما يدرى أحد منهم ذلك المرض الفكرى الذى سبق فاستنزف قواها وتركها فريسة لأدنى المؤثرات

مثلها مثل الدوحة الفينانة تزهر الغابة بها وتزدان ، تقف رشيقة القد مياسة الأغصان وريفة الأفنان بينا يتهش الدود لها فيسرع إليها الذبول حين يرجى إشراق نضرتها وازدياد توريقها ؛ وعلى غرة تراها وقد مالت بأغصانها إلى الأرض وأخذت تتساقط أوراقها ورقة ورقة إلى أن تضمحل وتموت فتهوى فى سكون الغاب . فإذا ما تأملنا هذه الأدواح الجميلة أخفقنا فى تعليل ميتتها ، محاولين عبثاً أن نذكر تلك العاصفة التى عساها أن تكون قد أطاحتها ، أو تلك الصاعقة التى لعلها تكون قد صعقتها

لقد لاحظت بعض النساء وهن منحدرات بخطى سريعة نحو الذبول وقد أهملن شأنهن فاختفين من الوجود على مهل كأنهن تبخرن فى الهواء . ولقد ظننت مراراً أنى أصبت الحقيقة حين عزوت وفاتهن إلى آلام السل المهلكة تارة ، وإلى البرد تارة ، وإلى الهزال مرة وإلى الأحزان مرة ، ولكنى وجدت فى النهاية السبب الحق وهو يأس الحب وضيعة الأمل

كل يذكر ولا ريب قصة ذلك البطل الأرلندى انشاب « ا . . » فهى قصة كان وقعها أليما بحيث لا يمكن أن تنسى سريعا ؛ فقد حوكم إبان الاضطرابات الأرلندية متهماً بالخيانة ونفذ فيه حكم الإعدام بالشنق ، وكان لخاتمة حياته الفاجعة صدى عميق فى قلوب الجمهور ، إذ كان شابا فى ميعة الصبى وزهرة الشباب ، متوقد الذهن ، كريم النفس ، شجاع القلب ، كل فيه كل ما يحب فى الفتى من كريم السجايا وحميد الصفات ، كما كان سلوكه أثناء المحاكمة سامياً تجلت فيه بسالته وإقدامه ؛ وكان لغضبته النبيلة فى دفع تهمة الخيانة عن نفسه ، ولدفاعه الرائع عن اسمه ، ولندائه الحار للأجيال المقبلة وهو فى موقف الاتهام وساعة اليأس.. صدى مدو فى أعماق كل صدر كريم ، حتى أن أعداءه أنفسهم نددوا بتلك السياسة النكراء التى قضت عليه بالقتل

ولكن قلباً واحداً بين هذه القلوب فاقت حسرته ولوعته كل وصف ، ذلك هو قلب تلك الفتاة الجميلة ابنة أحد مشاهير المحامين الأرلنديين التى كان قد نال حبها أيام سعده وتوفيقه ، وكانت هى قد أحبته لأول ما أحبت بتلك الحماسة التى تحب بها المرأة حبها الأول فى مقتبل أيامها . لقد كانت تحبه أيام محنته ، أيام تألبت عليه أقاويل الناس وأحكامهم ، أيام عصفت العواصف بماله ، وتهدد العار والدمار اسمه ، وأحاط به السوء من كل جانب . ولقد كان يزيد حبها له معاناته لتلك الآلام ، فكيف بها اليوم وكيف ألمها وهى التى كانت تهيم بطيفه وتشغف بخياله . وقد حرك المصاب نفوس عداته ، سل عن ذلك من سدت أبواب القبر بغتة فى وجهه ، وفرقت بينه وبين من لم يعدل به وبحبه أحداً ، وقد جثا على حافة القبر كالطريد فى دنيا باردة موحشة ذهب عنها كل ماهو محبوب وكل ماهو جميل

يالهوله من قبر ! كم هو مهين ! وقد خلت الذاكرة مما عساه أن يخفف غصة الفراق . ولم تستطع تلك الملابسات اليديمة وإن خالطها الغم ، أن تذيب ذلك الحزن فى تلك الدموع الباركة التى تنزل كالطل من السماء برداً وسلاماً على القلب فى ساعة الفراق الممضة

ترملت ، وزاد فى وحشة حياتها أن تلك الصلة قد أثارت غضب والدها وسخطه فنفاها من بيته . ولو أن صديقاتها روعت نفوسهن ومنعهن الخوف أن يهبنها عطفهن ، لما أعوزها العزاء ؛ فالأرلنديون قوم حساسو النفوس كريمو الشعور . ولقد مدت

إليها بيوتات كريمة يد المونة وأحطنها برقيق الرعاية وقدمنها للمجتمعات ، وحاولن الترفيه عنها بشتى الملاهي والمسرات ليزول عنها حزنها ولتبعد عن فكرها ذكرى مأساتها ، إلا أن ذلك كان عبثاً في عبث ، فإن من النكبات مايتلف النفس ويذويها وينفذ إلى منبت السعادة فيسحقه سحقاً فلا يعود إلى إنبات . أما هي فلم تأب التردد على منتديات السرور ، ولكنها كانت فيها منفردة بنفسها موكولة إلى أساها ، فكانت تسير في وجوم يغيب فيه الشعور بالدنيا التي تموج حولها ، وكانت تحمل في نفسها على الدوام هما دفينا يسخر بمداعبات الصديقات ، ولا تحفل بسحر الغناء ولا بجمال الرقص

لقد رآها من روى لي قصتها في « كرنفال » وقد أخبرني أنه لم ير منظراً للبؤس أكثر إيلاما للنفس من رؤيتها في هذا الحفل الحافل تمشي كالخيال الضارع وحيدة كئيبة؛ بينما كل ماحولها زاه بهيج ، وقال لي إنه رآها تلبس حلل المرح في حين تسير ساهمة الوجه ممتقعة اللون يغمرها الأسى كأنما تحاول عبثا أن تخدع قلبها لحظة تنسيه فيها حزنه المقيم . وبعد أن طافت بالحجرات الفاخرة وجالت بين ذلك الحشد الصاخب شاردة اللب جلست على درج منصة الموسيقى ؛ وبعد أن نظرت إلى الفضاء برهة وهي شاخصة الطرف يبدو عليها عدم الشعور بجمال المناظر من حولها ، أخذت تغني ، شأن القلب العليل في تقلب أطواره ، فكان شدوها باكيا، لقد كان صوتها رخيما إلا أنه في هـــذه المرة كان مؤثرا بسيطا ، فتنفست عن نفس يائسة ، والتف حولها الجميع وساد السكون ، فأذابت النفوس وأدمعت العيون

لقد أثارت قصتها شغف الناس ؛ إذ أن قصة سيدة على ذلك الإخلاص وهذا التفاني لا بد أن تثير إعجاب الناس في بلد عرف أهلوه بالحماسة والوفاء ، فأحبها وأغرم بها ضابط باسل خطبها وهو يحدث نفسه بأن من كانت تظهر هـذا الإخلاص للميت ، تظهر ولاشك مثل هذا الإخلاص للحي، إلا أنها خيبت أمله في ذلك إذ لم يكن في وسعها أن تصرف فكرها عن ذكرى حبيبها الأول! على أنه أصر على طلبه قائلا : إنه يكفيه منها التقدير بديلا عن الحب . وساعده عليها اقتناعها بجدارته وعوزها واعتمادها على الغير إذ كانت تعيش على ماتجود به الصديقات ، فنجح في النهاية في الحصول على يدها مع تأكيد رهيب بأن قلبها مازال ملكا لغيره ولا سبيل إلى صده عن هواه

سافر بها إلى صقلية لعل تبديل المناظر يمحو ذكرياتها القديمة، ولقد كانت رقيقة القلب مثال الزوجة الصالحة ؛ فحاولت أن تسعد زواجها ، إلا أن هذ الهم الساكن وذلك الحزن الكامن لم ينجح فيهما علاج

فذبلت رويدا رويدا ، وأخذ منها الهزال مأخذه ، فصارت وشيكا إلى انحلال لا أمل في البرء منه وهوت أخيراً إلى قبرها ضحية القلب المحطم

وقد نظم فيها مور الشاعر الأرلندي الشهير أبياته الآتية :

بعيدة عن الأرض التي بها مثوى بطلها المحبوب ،
يلتف حولهـــا المحبون وهم يصعدون الزفرات ،
إلا أنها تشيح عنهم بوجهها وتأخـذ في النحيب ،
فقـد علق قلبهـا بالثرى الذي ضم الحبيب ،

* * *

تنشد أغاني الفطرة عن مواطنها السذج الأعزاء ،
مؤثرة ما كان يحبه من بين تلك الأنغـام .
آه ليس يدري أولئك المعجبـون بألحانها
كم يتمزق قلبهـا وهي تشـــدو بأنغامها !

* * *

عاش لحبه ومات في ســـبيل بلاده ،
وكان هذان كل ما يعنيه من دنياه ؛
وسوف لا تجف عاجلاً دموع بلاده عليه .
ولا أمل لمن أحبه أن يعيش طويلاً من بعده

* * *

ابنوا قبرها حيث تستقر أشعة الشمس ،
حين تؤذن بغيابهـا بدنو غدٍ موموق ،
حتى تضيء عليها في ضجعتها كبسمة من المغيب
من جزيرة الأحزان التي أحبتها وعلقت بها

ح . ك

! ؟ !

* قال الشاعر الألماني جوته لصديقه أكيرمان *

* كل امرئ يأتي عليه حين من *

* دهره يظن فيه أن آلام *

* فرتر إنما كتبت *

* له خاصة *

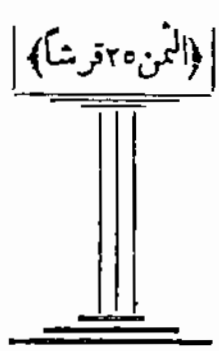

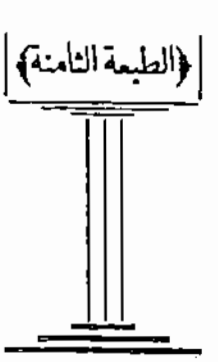

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف «جوته» الألماني

ثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد .. وهي تطلب من جميع المكتبات ومن إدارة الرسالة

ت : ٢٧٤٩٠

مطبعة الرسالة